النقد الأدبي

في القرنين الثاني والثالث

للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي

بلغ النقد الأدبي في القرن الثاني مرحلة من مراحل تطوره ، تناسب ما بلغه العرب في هذا العهد من نضج ثقافي وأدبي كبير .

كان الرواة كالاصمعي وخلف وحماد وأبي عبيدة يهتمون برواية الشعر وجمعه ، وكان لخلف مكانة في النقد ، « وكان أبو عمرو بن العلاء وأصحابه لا يجرون مع خلف في حلبة هذه الصناعة — النقد — ولا يشقون له غباراً لنفاذه فيها وحذقه بها وإجادته لها »[1] ، وكان يجمع كثيراً من الآداب[2] ، وكان عالماً بالغريب والنحو والنسب والأخبار شاعراً كثير الشعر جيده[3] ، وأصلح للاصمعي رواية بيت من شعر جرير وقال : اروه كذلك فقد كانت الرواة قديماً تصلح أشعار الأوائل[4] ، وأعجب بنقد بشار للشعر[5] ، وعرض عليه مروان لاميته ففضلها على لامية الأعشى[6] ، وكان أبو عبيدة يرى أن أشعر الناس امرؤ القيس والنابغة وزهير[7] وأشعر الاسلاميين الفرزدق وجرير والأخطل لأنهم أعطوا حظاً في الشعر لم يعطه أحد في الاسلام[8] ، وكان الاصمعي يعجب بشعر بشار لكثرة فنونه وسمة تصرفه ولطبعه وكان يشبهه بالأعشى والنابغة ويشبه مروان بزهير والحطيئة[9] وكان يفضل بشاراً على مروان[10] ، وكان يقول هو وأبو عبيدة : عدي في الشعراء بمنزلة سهيل في النجوم يعارضها ولا يجري معها[11] ، وعاب بين يدي الرشيد قول النابغة :

نظرت إليك ، بحاجة لم تقضها نظر السقيم إلى وجوه العوَّد

لذكره السقيم[12] ، وسئل المفضل عن الراعي وذي الرمة : أيهما أشعر فصاح صيحة

---

(١) ١٩٧ / ١ العمدة . (٢) راجع ٢٢٤ / ٣ البيان (٣) ٣٠٨ الشعر والشعراء . (٤) ١٣ / ٢ زهر (٥) ٤٣ / ٣ الاغاني . (٦) ٤٠٢ / ٣ العقد ٧١ / ٤ الجمرة (٨) ٤٦ المرشح (٩) ٢٠ / ٣ الاغاني . (١٠) ٥٠ / ٣ الاغاني ، ٢٥١ المرشح (١١) ١٧ / ٢ الاغاني (١٢) ٢٢٠ / ٢ العمدة

منكرة ، أي لا يقاس ذو الرمة بالراعي [١] . وقد سبق رأي هؤلاء النقاد في مذهب الصنعة والمصنعين .

وكذلك كان الأدباء ينقدون الشعر بفطرتهم وذوقهم ، وكان بشار أجودهم وأدقهم في نقد الشعر ومذاهبه ، وكان أبو عبيدة يعجب من « فطنة بشار وصحة قريحته وجودة نقده للشعر » [٢] ، وكان خلف يعجب من نقده للشعر ومذاهبه [٣] ، وقضيب بشار في سلم لسرقته معانيه [٤] ، وكان مروان يعرض شعره عليه [٥] ، وكان ابو العتاهية يعتمد على معاني بشار [٦] ، وكان أشجع يأخذ عنه ويعظمه [٧] ، وكان ابن الرومي يقدمه ويزعم أنه أشعر من تقدم وتأخر [٨] ، وكان كثير من الشعراء يجارون بشاراً في هذا الميدان .

ولكن جهود علماء اللغة في النقد كانت أذكى وأظهر فرضعوا الجاهليين في طبقات ولم يتركوا شاعراً مشهوراً من الجاهليين إلا رأوا فيه رأياً ، ولا فناً من فنون الشعر إلا نقدوه ونوهوا بما فيه من جيد ورديء ، وهم الذين جمعوا أقوال النقاد قبلهم في الشعر والشعراء ، وازنوا بين الاسلاميين والمتقدمين ، ونقدوا رواية الشعر وبنيته ومعانيه وغير ذلك من الموضوعات .

وفي القرن الثالث أخذ النقد يستقل بالبحث والتأليف على أيدي النقاد وعلماء الأدب وسواهم : كابن سلام م ٢٣١ هـ ، والجاحظ م ٢٥٥ هـ ، وابن قتيبة م ٢٧٦ هـ ، وابن المدبر م ٢٧٩ هـ ، والمبرد م ٢٨٥ هـ ، وابن المعتز م ٢٩٦ هـ وسواهم من الأدباء وعلماء الأدب واللغة وأصحاب الثقافات الحديثة وغير هؤلاء من الذين خاضوا في أصول الموازنات والبلاغة وموازين النقد :

١ — فمن الأدباء النقاد : أبو تمام م ٢٣١ هـ ووصيته للبحتري حول الشعر وفنه ومذهب الشاعر فيه مثال واضح من أمثلة النقد الدقيقة وأصل من أصوله الأولى [٩] ،

(١) ١٧٦ الموازنة . وكان ذو الرمة راوية الراعي (٢٠٧ طبقات ابن سلام . ٢١ ، ٢٣ / ٣ الاغاني (٣) راجع ٤٣ / ٣ الاغاني ، ٢١٠ الدلائل ، ٧٥ المفتاح ، ١٧ الايضاح (١) ١٨ / ٣ الاغاني (٥) ٥٨ / ٣ الاغاني . (٦) ١٣٤ / ٣ الاغاني (٧) ١٠٧ / ٣ الاغاني . (٨) ١٣ / ٣ زهر الآداب وكان بشار يقدم جريراً على الفرزدق (١٣٩ طبقات ابن سلام) من حيث كان البحتري يفضل الفرزدق (٣٤ صناعتين) ، ونعد بشار أول كثير « إلا إنما ابي عمرو » (٨٠ / ٢ الكامل) .

(٩) راجع أوصيه في : ١٥٦ / ١ زهر ، ٢٠٩ / ٢ العمدة ، ١٦ حديقة الافراح اليمني ط ١٣٢ هـ ، ٢٧ الطرائف الأدبية .

وله آراء أخرى في النقد مفرقة في شتى المصادر [١] ؛ ومنهم ابن المعتز وسواه .

وتميل هذه الطبقة إلى العناية بأدب وشعر المحدثين ونقدهما ، وخاصة شعر أبي تمام والبحتري ، ولعلي بن أحمد المنجم رسالة في العباس بن الأحنف والعتابي والموازنة بينهما [٢] .

ب — ومن علماء الأدب ابن سلام والجاحظ وابن قتيبة :

أما ابن سلام فبصري راوية عالم بالشعر مؤلف في نقده ، عاش في النصف الأخير من القرن الثاني الهجري والثلث الأول من القرن الثالث ، ودرس وتثقف وأحاط باللغة والآداب والأخبار ، واهتم بالنقد مع تأثر بروح عصره في الاستيعاب والشرح والتحليل ، وله كتاب طبقات الشعراء الجاهليين وكتاب طبقات الشعراء الاسلاميين [٣] ، وقد أدمجنا في بعض وطبعا من عهد قريب باسم « طبقات الشعراء » ، والمقدمة المطبوعة في أوله هي مقدمة كتاب طبقات الاسلاميين ، ويشهد إلى ذلك الكثير من مقدمته كقوله : «ورتبت هذا المؤلف على عشر طبقات كل طبقة تجمع أربعة من فحول شعراء الاسلام [٤] .

وكتابه أول مؤلف في النقد [٥] كما يقولون ، والصحيح أنه ألف قبله في موضوع كتابه نفسه كثير من الكتب كما سنذكره بعد قليل ، ويبحث كتابه تشمل ذكر أئمة العربية واتجاهاتهم العلمية ، وتناول شرح الشعر العربي وأثره ونشأته وتطوره وتنقله في القبائل والقبائل ، ثم يذكر طبقات الجاهليين العشر وشعراء المراثي وشعراء القرى العربية ، كما يذكر طبقات الاسلاميين العشر جاعلاً في كل طبقة أربعة من الشعراء ، مع الدراسة العميقة والتحليل الدقيق والنقد الممتع لرجال هذه الطبقات وحياتهم ومذاهبهم الفنية في الشعر ؛ والكتاب يحق من مصادر ثقافتنا الأدبية في النقد ولا يكاد يستغني عنه باحث أو دارس ، وهو ضروري في دراسة النقد وجامع لكثير من الآراء فيه ، وقد رواه عن ابن سلام ابن أخته أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحي م ٣٠٥ هـ والذي يشيد المصري بأدبه وبلاغته [٦] .

وأما الجاحظ فعلم من أعلام الأدب والنقد والبيان ، وفي كتابه « البيان » وسواه

---

(١) راجع مثلا ص ١٩٢ طبقات ابن المعتز ، ٢٢١ ، ٩٢ — ٩٤ ، وهصر ، وفي الوشح (٢٩٣ و ٢٩٤) منبوذة لابي أحمد يحيى بن علي المنجم م ٣٠٠ هـ . (٢) ١٦٥ فهرست ، ٤١ . ص ١٦ طبقات الشعراء لابن سلام . (٥) ١٠٨ / ٣ زيدان ، ٢٤ تاريخ النقد الادبي عند العرب ، ٦ ، ٢٥٣ ج ٣ زهر .

من مؤلفاته ثروة كبيرة في النقد الأدبي ، فتجده يحلل في دقة وتفصيل مذهب الطبع والصنعة في الشعر [١] ، ويشير إلى سرقات أدبية [٢] ، وموازنات أدبية ، [٣] ويستجيد بعض آثار للشعراء فيقول مثلاً : وكان أبو حية أشعر الناس لقوله الخ [٤] ، ويقول : ومن جيد محدث أشعارهم الخ [٥] ، ويقول : ومن جيد الشعر قول جرير [٦] الخ ، ويثني على أبي نواس وشعره وخمرياته [٧] ، ويرى أنه ليس هناك مولد إلا وبشار أشعر منه ولا مولد أشعر بعد بشار من أبي نواس [٨] ، وأبو نواس عنده أشعر الناس في قوله : « كأن ثيابه أطلعن من أزراره قمراً » [٩] .

ورأى أن بيتي عنترة « وخلا الذباب بها الخ » من المعاني العقم [١٠] ، ومثله قول أبي نواس « قرارتها كسرى الخ » [١١] ، وينقد أبا العتاهية ذاهباً إلى أن شعره أملس المتون ليس له عيون الخ [١٢] ، ويعجب بقوله « روح الجنة في الشباب » إعجاباً كبيراً [١٣] ، ويعجب بجودة أشعار طرفة وعبيد يقول وقت إحاطة الموت بهما [١٤] ، ويذكر حماد ابراهيم بن عبد الله لأبيه في شعر كثير [١٥] ، وأن الناس كان يستحسنون بيت الأعشى « وبات على النار الندى والمحلق » حتى قال الحطيئة :

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد

فسقط بيت الأعشى [١٦] ، وينقد الكميت لقوله في رسول الله :

لج بتفصيلك اللسان ولو أكثر فيك اللجاج والصخب

كما ينقده لقوله في رثائه :

لقد غيبوا حزماً وعزماً وناثلاً حشية واراه الصفيح المنصبُ

لأنه يصلح في عامة الناس [١٧] ، وقد دافعوا عنه بأنه انما أراد في البيت الأول آل

---

(١) ٥٤ و ٥٥ و ١٥٠ جـ ١ ، ٢١ — ٢٦ جـ ٢ البيان . (٢) ٨١ و ١١٦ و ١٧٩ و ٢٥٥ جـ ١ البيان . ٣٠ - ٢٤٣ جـ ٢ البيان . (٤) ١٦٦ جـ ٣ و ٢٠٥ و ٢٠٦ جـ ٤ العقد . (٥) ١٧٥ جـ ٣ البيان . (٦) ١٣٣ جـ ٣ البيان ، وتجد شرحاً ليقين جرير الذي ذكرها الجاحظ في هذا الموضع في ص ٢٠٨ طبقات الشعراء لابن سلام ؟ ١٤٢ جـ ٤ العقد . (٨) ٩١ جـ ٢ الصناعتين . (٩) ١٨٤ جـ ٣ زهر . (١٠) ١٨٤ جـ ٣ البيان (١١) ١٦٦ جـ ٣ زهر ، وراجع شرح البيت في الصناعتين ٢٧٥ جـ ١ وكذلك ذهب ابن رشيق في العمدة في بيت أبي نواس ، وقدمنا ابن الأثير في ذهابهما إلى أن بيت أبي نواس من المعاني المبتكرة ورأى أنه من المعاني المشتركة بأن فصاحة هذا الشعر هي الوسيلة لا هذا المعنى (١٢٢ : الفن الثالث) ٥٢ ، ١١٢ جـ ٣ زهر (١٣) ٣٨ جـ ٣ الأغاني ، ٣٦٦ جـ ٢ عصر المأمون (١٤) ١٩٣ - ٢ البيان . (١٥) ١٤٦ جـ ٤ البيان . (١٦) ٣٦ جـ ٢ البيان . (١٧) ١٧٢ و ١٧٣ جـ ٢ البيان ، ١٧٠ جـ ٥ الحيوان ط ١٩٤٣ ، ٤٥ جـ ٢ الصناعتين .

الرسول لا الرسول فورى عنهم بذكر النبي خوفاً من بني أمية [١] ، ويذكر مناهج الرواة [٢] وتعصب أبي عمرو بن العلاء على الاسلاميين [٣] ، وأن الرواة كانوا [٤] يحرصون على نسيب العباس بن الأحنف حتى أوردوا عليهم خلف نسيب الأعراب فعلموا به وزهدوا في نسيب العباس ، والجاحظ ينكر غلو المتعصبين على الشعراء المحدثين فعلهم ، ويرى أنه لو كان لهم بصر لعرفوا موضع الجيد ممن كان ، وفي أي زمان كان [٥] إلى غير ذلك من شتى آرائه في النقد . . .

وأما ابن قتيبة فهو عالم ملم بالثقافات في عصره ، مجدد في التفكير ، ولكنه مع ذلك محافظ كل المحافظة في الأدب ، ينعى على الأدباء انصرافهم إلى المنطق وشغفهم به دون سواه من علوم الدين واللغة [٦] ، ويرى وجوب اتباع منهج المتقدمين في نظم القصيدة [٧] ، ولكنه مع ذلك لا يتعصب للقديم ولا للمحدث تعصباً أعمى ولكن يعطي كلاً حقه من العدالة والانصاف وكتاب الشعر والشعراء وعلى الأخص مقدمته دراسة عميقة للشعر وأقسامه وعناصره والطبع والصنعة فيه والخصومة بين القدماء والمحدثين ولدواعي الشعر ونظمه وأسباب اختلاف شعر الشاعر .

والكتاب مظهر لثقافة واسعة [٨] واطلاع واسع وذوق سليم ، وفيه عرض لنحو مائة وستين شاعراً من الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين وصدور المحدثين ، وقد عني في دراسته لهم ببيان مذاهبهم وخصائصهم واتجاهاتهم وذكر آراء النقاد في شعرهم وسرقاتهم وما يستجاد لهم من حكمة أو تشبيه أو وصف وما سبقوا إليه من معان ، وقد سرد الشعراء سرداً دون ترتيب لطبقاتهم أو لهم بحسب عصورهم ، يعكس ابن سلام ، وقد اهتم بدراسة لغة الشعراء وأثر البيئة فيها [٩] ، وتكلم على بعض النساء الشاعرات كالخنساء [١٠] وليلى الأخيلية [١١] ، وهو حريص على ذكر زلات الشعراء من ناحيته العقيدية [١٢] ، ويعنى بتحقيق نسبة الشعر لقائله عناية كبيرة . . .

(١) ٢٠ الموازنة ، ١٣٦ ج ٢ السمط (٢) ٣٣٤ ج ٣ البيان ، ٤ ، و ٥ الكشف عن مساوىء المتنبي (٣) ٢٠٩ ج ١ البيان . (٤) ٢٢٤ ج ٣ البيان . (٥) ٤٠ ج ٣ الحيوان ، وذلك ما يردده ابن المعتز الذي يحكم عدالة المحكومة الادبية وحتم الايمان بحسن عدواً كان أو صديقاً (١٣ و ١٤ رسائل ابن المعتز) ، وكذلك رأى ابن قتيبة (٧١ و ٨ الشعر والشعراء) ، وابن رشيق (٧٤ ج ٢ العمدة) .

(٦) ص ٢ أدب الكتاب (٧) ١ وما بعدها الشعر والشعراء .

(٨) راجع مثلا شرحه للمشكل من شعر أبي نواس (٣٠٥ و ٣١٦ و ٣٢٠ و ٣٢٥ الشعر والشعراء) ، وفي الكتاب بعض آراء جزئية متفرقة كرأيه في أن المتنبي يجب ان يكون أقوى من أنشد في وجه الشبه (٣١٧ الشعر والشعراء) ونحو ذلك (٩) راجع رأيه في عدي وأبيه بن أبي الصلت وأبي دؤاد (٦٣ و ٦٩ و ١٢٦ الشعر والشعراء) ، ٢ ج ٢ الاغاني مثلا) (١٠) ١٢٢ الشعر والشعراء (١١) ١٢٠ المرجع (١٢) راجع مثلا : ٣٢١ و ٣١٢ المرجع .